تاريخ لبناني

حروب المردة مع العرب

بقلم الأب : بطرس ضو

نَصف حوادث هذه الحرب حسب تسلسلها التاريخي موردين نصوص كل من المؤرخين بصـــدد هذه الحوادث :

في أيام الحكم البيزنطي كان جراجمه الجرجومه ، أي المردة السوريون ، خاضعين لوالي إنطاكية وكانت الجرجومة في العهد البيزنطي من أعمال سوريا الأولى وخاضعة لوالي إنطاكية كما يتضح من نص البلاذري (البلاذري ص ١٥٩). عندما فتح أبو عبيـــدة إنطاكيـــة ســـنة ٦٣٨ م ، لـــزم الجراجمة مدينتهم وهّموا باللحاق بالروم ولم ينتبه المسلمون لهم . تولى حبيب بن مسلمة القـــهري إنطاكية من قبل أبى عبيدة على اثر فتحها ثانية . غزا حبيب هذا الجرجومه فصالحه أهلها علـــى أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزيـــــة وأن ينفّلـــوا أسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين إذا شاركوهم في المغازي . دخل في هذا الصلح غيرهم من أهل القرى وسكان الجرجومة من التجار والأجراء والتابعين من الأنباط .

وكان الجراجمة يستقيمون للولاة العرب تارة وطوراً يعوجّون فيكاتبون الروم ويمالئونهم (البلاذري) . كان الجراجمة – المردة وحلفاؤهم من الأنباط أي الســـوريين الآراميـــن تنظـــم علاقاتهم بالولاة العرب في الفترة الأولى بعد الغزو العربي معـــاهدة يُعفـــى بموجبـــها المـــردة الجراجمة وحلفاؤهم من الجزية وينعمون بامتيازات تكرّس استقلالهم وتجعلهم " أعواناً " للمسلمين حسب عبارة البلاذري أي حلفاء لهم . وكانوا يمارسون هذا الاستقلال فعلاً بمكاتبتـــهم الـــروم ، والاتصال بهم ، والتفاوض معهم . ويشير البلاذري إلى هذا بقوله : " فكان الجراجمة يســـتقيمون للولاة مرة ويعوّجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم " .

وفي السنة التاسعة لقسطنطين الرابع بوغونات ، اي في سنة ٦٧٧ م ، " دخـــل المـــردة لبنـــان فضبطوا كل ما كان من الجبل الأسود) هو القسم الشمالي من جبال العلويين المشرف على مدينة السويدية أي سلوقية بياري (Seleucie de Pierie إلى المدينة المقدسة (أي أورشليم القدس) واستحوذوا على قمم لبنان وانضم إليهم كثيرون من العبيد والأسرى وأبناء البلاد حتـــى اصبـــح عددهم في مدة وجيزة الوفاً كثيرة . وسمع معاوية وأصحاب مشورته بذلك فخشوا جداً من عاقبتـه حتى فكروا بان اللّه محام عن مملكة الرومانيين وأرسلوا وفداً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح

ويعدون بوفاء جزية كل سنة ، فتقبل الملك وفدهم بالإعزاز والتكريم وأجابهم إلى سؤالهم ، وأوفد معهم إلى سوريا البطريق يوحنا المسمى بتسيكيود وكان من رجال الندوة في حكومتـــه ومتصفـــاً بالخبرة والحكمة والدراية في التفاوض مع العرب ليتفق معهم على شرائط الصلح . ولمـــا بلـــغ سوريا قابله معاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته . وبعد المداولة بشروط الصلح قرَّ رأيهم على كتابة عهدة موثوقة باليمين على أن يدفع العرب كل سنة إلى الرومـــانيين ثلاثـــة آلاف ذهـــب ، وثمانية آلاف أسير ، وخمسين جواداً من الخيل الجياد , وأبرم الصلح بين الرومـــانيين والعـــرب على هذه الشروط إلى ثلاثين سنة ، ودونت العهدة ووقع على نسختين منها لكل فريـــق نســـخة . وعاد ذاك الرجل الشهير البطريق يوحنا إلى الملك بهدايا نفيسة جداً (حسب ما جاء فـــي كتـــاب توافانوس، ترجمة المطران يوسف الدبس ، الجامع المؤصل في تاريخ الموارنة المفصل ، بيروت ١٩٠٥، ص ٣٥ و ص ٣٦) .

يستخلص من كلام البلاذري وتوافانس إلى الآن ما يلي :

أ – في مطلع الغزو العربي عقد الجراجمة مع العرب معاهدة صلح يتمتـــع بموجبـــها الأولـــون بالاستقلال في مدينتهم ويكونون حلفاء للعرب . هذا كان وضع الجراجمة المردة منذ فتح إنطاكيـــة في سنة ٦٣٨ حتى السنة ٦٧٧ . وطيلة هذه الفترة لم يقطع المردة الجراجمة صلاتهم بـــالروم إذ استمرت المراسلات والمفاوضات بين الفريقين .

ب – في السنة ٦٧٧ خرج المردة الجراجمة من مدينتهم في شمالي سوريا في حملة قوية اشـــترك فيها مردة أرسلهم الروم من آسيا الصغرى وأنباط أي آراميون سوريون من أبناء البلاد وعبيـــد . فاحتلوا في هذه الحملة كل الرقعة الجبلية الممتدة من مدينة الجرجومة والجبـــال المشـــرفة علـــى السويدية ميناء إنطاكية عند مصب العاصي حتى جبال فلسطين والمدينـــة المقدســـة أورشـــليم . وجعلوا معقلهم الرئيسي في قمم لبنان . ومن هناك اخذوا يشنون الغارات على الدولة الأمويـــة . هكذا انشأوا دولة مستقلة ممتدة من شمالي سورية حتى جنوبي فلسطين وجعلوا من لبنان قلب هذه الدولة المستقلة ومعقلها الأكبر، وضايقوا الدولة الأموية حتى اضطر معاوية إلى عقد صلح معـــهم ومع الملك البيزنطي قسطنطين الرابع بوغونات .

توافانس لا يشير الاّ إلى الصلح بين معاوية والبيزنطيين ولكن البلاذري يقول في وصفه حمـــلات المردة الجراجمة ضد الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان " إن عبد الملك صالحـــهم (أي المردة الجراجمة) على ألف دينار في كل جمعة ... واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب العراق فانه صالحهم على أن يؤدي إليهم مالاً ".

المعاهدة كانت إذاً بين معاوية والمردة الجراجمة وبين معاوية والبيزنطيين . وبموجب هذه المعاهدة يؤدي معاوية إلى المردة والجراجمة مالاً معيناً يدفعه في وقت معين .
هذه المعاهدة رسخت استقلال المردة الجراجمة وسطوتهم وزادتهم قوة ومتانة . وفي هذه الحملة الجديدة والمعاهدة التي تكللت بها انتقل مركز ثقل المردة الجراجمة من الجرجومة في شمالي سورية إلى لبنان الذي اصبح قلب إمارة المردة أو دولتهم .
منذ ذاك الوقت أصبح لبنان الجبلُ قلباً ومركزاً لكيان سياسي مستقل بعد أن كان مجرد رقعة جغرافية لا مدلول سياسياً لها . ويعود إلى هؤلاء المردة فضل تأسيس الكيان والاستقلال اللبناني قبل المعنيين والشهابيين وغيرهم .
وأبرمت المعاهدة لمدة ثلاثين سنة . ولا شك أن هذه المعاهدة كانت معاهدة صلح يلتزم بموجبها معاوية من جهة بتأدية مبلغ من المال للجراجمة المردة ، ومن جهة ثانية يلتزم فيها المردة الجراجمة بوقف غاراتهم على الدولة الأموية .
ولكن هذه الدولة اللبنانية الجديدة أصيبت بنكسة في فجر بزوغها ويشير إلى هذه النكسة كل من المؤرخ الرومي توافانس والمؤرخ العربي البلاذري. ولكن كل منهما يصف ناحية منها :
قال توافانس في مجريات السنة الأولى لعبد الملك بن مروان)٦٨٥م (: " في هذه السنة حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سوريا وُولي عبد الملك في أمته وتواترت غارات المردة في جوار لبنان وثقلت وطأة الطاعون فطلب عبد الملك تجديد عهدة الصلح التي كانت قد أبرمت في أيام معاوية وأرسل وفوداً إلى الملك واعداً أن يدفع كل سنة ثلاثماية وخمسة وستين ديناراً وكذلك من العبيد وليس بأقل من ذلك من الخيل الجياد. "
وإيضاحا لهذه الحوادث الجديدة يقول توافانس في كلامه عن السنة الأولى ليوستنيانس الأخرم وهي السنة ٦٨٥ أيضاً : " في هذه السنة أرسل عبد الملك رسلا إلى الملك) يوستنيانس الثاني الأخرم (لإبرام عهدة الصلح ، فعقد الصلح على الشروط الآتية وهي أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان ويصد غزواتهم، وان عبد الملك يدفع إليه في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً، وان الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرص وارمينيا وايباريا)بلاد بجوار ارمينيا (قسمة عادلة سوية . وأرسل الملك بولس ماجيستريانس إلى عبد الملك لإبرام عهدة الصلح فكتب صكها ووقع عليه أمام شهود وعاد ماجيستريانس مكرماً إلى الملك امراً بابعاد اثني عشر الفاً من المودة عن أوطانهم وقد أضعف بذلك قوة المملكة الرومانية لأن جميع المدن المجاورة للبنان من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كانت ضعيفة وأصبحت خالية من السكان بسبب غارات المردة

الذين كبتهم الملك . وقد توالت من ذلك اليوم إلى الآن المحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطو العرب . وفي السنة الثانية ليوسيتنيانس ذهب الملك الى أرمينيا فقابل هناك عسكر المردة الذي كان قبلاً في لبنان بمنزلة سور نحاسي لمملكته فدكه بيده ".

يستخلص من هذا النص ما يلي :

ما مضت سبع سنوات على المعاهدة بين معاوية والمردة حتى عاد المردة وأغاروا من جديد وبشدة وتكرار على الدولة الأموية مما الجأ عبد الملك إلى طلب تجديد المعاهدة . توافانس لا يشير إلى الأسباب التي أدت إلى الإخلال بالمعاهدة . ولكن البلاذري يشير إليها بوضوح : " فلما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتوليته إياه عهده واستعداده للشخوص إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، خرجت خيل الروم إلى جبل اللكلم وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين . فاضطر عبد الملك إلى أن صالحهم الجراجمة وحلفاؤهم على ألف دينار في كل جمعة، وصالح طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه . واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق فانه صالحهم ، على أن يؤدي إليهم مالاً . وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك . ووافق ذلك أيضا عمرو بن سعيد بن العاص الخلافة وإغلاقه أبواب دمشق حين خرج عبد الملك عنها فازداد شغلا، وذلك في سنة سبعين . "

البلاذري يبين بوضوح كيف تحركت هذه الحملة الثانية خلافاً للمعاهدة التي أبرمت بين المردة ومعاوية إذ يقول إن الذين اتخذوا مبادرة الإخلال هذا هم الروم : " خرجت خيل الروم ألي جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من
الجراجمة ... " فالروم دفعوا الجراجمة المردة على الإخلال بالمعاهدة ثم تخلوا عنهم، لا بل أمعنوا في التنكيل بهم عند تجديد المعاهدة وإبرام الصلح مع عبد الملك . كان من بنود المعاهدة كف غارات المردة عن لبنان حسبما ورد صريحاً في كلام توافانس .

ولكن الروم لم يكتفوا بمنع المردة عن شن الغارات على الدولة العربية ولكن عملوا على إبعاد اثني عشر آلفا من المردة عن لبنان وإقصائهم إلى أرمينيا . هذه كانت نكبة كبرى أوقعها هؤلاء الروم في الدولة اللبنانية التي ظهرت آنذاك وفي دولتهم على حد تعبير توافانس .

وخشي الروم أن يرفض المردة مبارحة أوطانهم والهجرة إلى أرمينيا فيستحيل إذ ذاك على الروم تنفيذ مآربهم فعمدوا إلى مكيدة للإيقاع بالمردة . وقد وصف الدويهي نقلاً عن مخطوطات قديمة

هذه الخدعة بقوله :

ومن بعد كتابة العهود (أي المعاهدة بين علد الملك ويوستنيانس الأخرم) ورجوع الرسول ، فرح الملك بما كان وأنفذ إلى يوحنا أمير جبل لبنان ينهاه عن التعرض لعبد الملك في شيء ويأمره أن يسير بجيشه نحو الغرب . فبعث أمير الجبل إلى الملك يفهمه أن السفر متعذر عليهم بسبب الشتاء فتغيظ الملك من هذا الجواب ونسبهم إلى العصيان . وأمر في الحال بتجهيز الجيوش وتسييرها إليهم وأشاع من باب المكيدة انه سيرها لقتال العرب . وأعطى قائد الجيش الخلع والكتب الشريفة ليسلمها إلى أمير المردة في لبنان وأوصاه أن يتوجه بمفرده إلى قب الياس لكي يحتال على الأمير يوحنا ويقتله .

فلما وصلت عساكر الروم إلى البقاع انفرد عنهم القائد وتوجه نحو قب الياس بنفر قليل وخلا بالأمير وأمنه بالخلع والكتب الملوكية وجعل يخادعه بقوله إنه زاحف على العرب ويسأله النجدة عليهم ، ثم دعاه إلى مؤاكلته وبينما هو كذلك استل علوج الروم سيوفهم ووثبوا على يوحنا وقتلوه . وعندما تضرمت جيوش يوحنا غيظاً وأخذت تقاتل جيوش الروم فانجلت الموقعة عن انكسار المردة لأنهم أخذوا بغتة ... ولما قتل أمير المردة أمروا عليهم سمعان ابن أخت المقتول وكان رجلا شجاعاً فمشى في أثني عشر ألف مقاتل إلى جهة أرمينيا ... ومن هناك اجتاز إلى بلاد طراكيا .

ووصف الدويهي لهذا الغدر يؤيد البلاذري ، اذ يصف المكيدة ذاتها ولكن بشكل آخر فيقول :

ثم أن عبد الملك وجه إلى الرومي سحيم بن المهاجر فتلطف حتى دخل عليه متنكراً فأظهر الممالأة له وتقرب اليهم بذم عبد الملك وشتمه وتوهين أمره حتى أمنه واغتر به . ثم انه انكفأ عليه بقوم من موالي عبد الملك وجنده كان أعدهم لمواقعته ورتبهم بمكان عرفه . فقتله ومن كان معه من الروم ونادى في سائر من ضوى اليه بالامان . فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام وأتى الأنباط قراهم ورجع العبيد إلى مواليهم .

الدويهي يجعل قائد جيش الروم بطل هذه المكيدة الدنيئة ولكن البلاذري ينسبها إلى سحيم بن المهاجر مبعوث عبد الملك . والحقيقة أن المكيدة جرت بتواطؤ الروم والعرب معاً إذ لم يكن باستطاعة ملك الروم أن يرسل جيشاً إلى سورية ولبنان جهراً بدون موافقة العرب . وليس من المستبعد أن يكون سحيم بن المهاجر ذاته تظاهر بحيلة حبكها ملك الروم والخليفة معاً ، بأنه قائد اتى من قبل ملك الروم لمساندة المردة ضد عبد الملك .

فلماذا اقدم يوستنيانس ملك الروم على التنكيل هكذا بجيش المردة مما أدى إلى إلحاق الضرر

الجسيم بالمملكة الرومانية على حد قول توافانس ؟ لماذا اقدم على هذا العمـــل الفظيـع مـع أن المعاهدة بينه وبين عبد الملك تكتفي بايقاف غارات المردة ولا توجب نقل عسكرهم إلـــى بـلاد أخرى ؟ إن هذا لا يمكن أن يفسر بأسباب سياسية محضة ، هنالك أسباب دينية لها صلة بعلاقـة الروم بالموارنة في ذلك الوقت . ومما لا ريب فيه أن أسرة سرجون المتعصبة للروم في دمشـق لعبت دوراً رئيسياً في هذه المكيدة وكانت صلة الوصل بين الروم والعرب فـــي حبـك خيـوط المؤامرة الشنيعة . وكان وزير المال والصدر الأعظم في الدولة من هذه الأسرة .

فالكيد الديني الذي اشتهر به الروم أعمى بصائرهم فلم يقدّروا ، أو قدّروا وتجـاهلوا ، العواقـب الوخيمة التي سوف تنجم عن هذه النكبة التي أوقعوها بالمردة بالنسبة إلى مناعة إمبراطوريتـــهم وإلى القضية المسيحية في الشرق .

كان من نتيجة هذه المؤامرة حسب توافانس ترحيل اثني عشر ألف من المردة عن أوطانـــهم أي لبنان .

ولكن هذا لا يعني أن كل المردة رحلوا عن أوطانهم في لبنان وسورية إذ ذاك . فالأثنا عشر الفـاً الذين رحلوا يتألفون من فرقة الخيالة المردة التي أتت من بلاد الروم إلى الجرجومة لا من المردة الوطنيين أي الجراجمة . والبرهان على أن كل المردة لم يرحلوا هو قول البلاذري " فقتلـه (أي قتل سُحَيمٌ القائد الرومي) ومن كان معه من الروم ونادى في سائر من ضوى إليـــه بالأمـان . فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق . ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام واتي الأنباط قراهم . "

فالجراجمة المردة لم يرحلوا إلى بلاد الروم ولكن رحل المردة الذين اتوا من أسيا الصغرى وبقـي الجراجمة في لبنان وسوريا أي في قرى حمص ودمشق واللكام وغيرها كما قـــال البـلاذري .

وجرت مواقع بينهم وبين العرب في سوريا ولبنان بعد نكبة ٦٨٥ في أيام الوليد بن عبـد الملـك والواثق باللّه والمتوكل . وهذا ما يقوله البلاذري بهذا الصدد :

ولما كانت سنة تسع وثمانين) أي تسع عشرة سنة بعد نكبة ٦٨٥ التي رحل على أثرها قسم مـن المردة الى بلاد الروم (اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم وأتاهم قوم من الروم من قبل الاســكندرونة وروسس . فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة بن عبد الملك فأناخ عليهم في خلق من الخلــق فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجري على كل أمرئ منهم ثمانية دنانير وعلـــى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وهو مديان من قمح وقسطان من زيت وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منـــهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية على أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبـــارزة ،

وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين . فـــأخرب مدينتـــهم وأنزلهم فأسكنهم جبل الحوار وسنح اللولون) جبل ليلون أي جبل سمعان اليوم (وعيـــن تـــيزين وصار بعضهم إلى حمص . ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه إنطاكية ثم هرب إلى بـــلاد الروم .

في أيام الوليد عبد الملك (٧٠٥ – ٧١٥) وبالضبط في السنة ٨٩ هجرية عاد الجراجمة وتجمعوا في مدينتهم الجرجومة وأتاهم قوم من الروم من الاسكندرونة وروسس فأوجس العرب خفية مـــن هذا التجمع وأرسل الوليد مسلمة بن عبد الملك فافتتح الجرجومة وأبرمت معـــاهدة جديـــدة بيـــن العرب والمردة الجراجمة هذه بنودها :

١–هجر الجراجمة مدينتهم ويتفرقون إلى حيث احبوا من الشام .

٢–يجري على كل أمرىء منهم ثمانية دنانير ومديان من قمح وقسطان من زيت لكل عيلة .

٣–لا يكره أحد منهم ولا من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ولبس لباس المسلمين .

٤–لا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية .

٥– -إذا اشتركوا مع المسلمين في المغازي ينفلون أسلاب من يقتلونه مبارزة .

٦–يؤخذ من تجارتهم وأموال موسر يهم ما يؤخذ من أموال المسلمين .

يتضح من هذه المعاهدة جملة أمور : ظل الجر أجمة بعد ترحيل مردة الأناضول إلى بلاد الـــروم قوة تحسب لها الدولة الأموية حساباً . وظلوا حتى بعد خراب مدينتهم الجرجومة وتفرقهم في بلاد الشام مرتبطين بنظام خاص يجمعهم ويوحد فيما بينهم بحيث أبرمت الدولة الأموية معاهدة معـــهم كمجموعة واحدة وإن كانوا متفرقين في أماكن متعددة متباعدة كجبل الحوار وسهل العمق أو سهل إنطاكية أو سهل تيزين وجبل ليلون وحمص وغيرها . وظل هؤلاء الجراجمة كجماعة متمتعيـــن بامتيازات خاصة تعفيهم من الجزية وتمنع التعرض لهم في شؤون دينهم ولبسهم وأموالهم وغـــير ذلك . ولما أُلزم بعض العمال الجراجمة بإنطاكية بتأدية الجزية رفع هؤلاء الأمر إلـــى الخليفـــة العباسي الواثق باللّه (٨٤٢ – ٨٤٦) فأمر بإسقاطها عنهم

وظلوا معفيين من الجزية على ما يبدو حتى أيام المتوكل (+ ٨٦١) الذي أمر بأخذ الجزية منهم .